(7)

الزوج الحزين

طفلة وُلدت صارخة، لا صرخة الحياة، ولكن صرخة النوح والندب على أمها.
صرخة حزينة، كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يُدفئها!
صرخة تترد في ضراعة كأنها جملة مركبة من هذه الكلمات: (يا رب ارحمني من الحياة بلا أم!).
اما زوجتي الحبيبة لما ضربها المخاض ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة، وستكون روحين لا روحاً واحدة، وتلد لي الحياة والحب وتأتي لقلبي بطفلتي الأولى. كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشدّ منها، ولكن ما أسرع ما تبينت أنه الموت إذْ عسرت زوجتي في ولادتها وجاءها الطبيب بأدوات الجراحة، وكأنما رأته ذابحاً لا طبيباً فجعلت تعبر بعينها إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين.
كانت بنظرة تبكي علي وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها وشقائه؛ وبنظرة تودعني، وبأخرى تدعو الله لي جزاء ما أحسنت إليها؛ وبنظرة تتوجع لنفسها، وبأخرى تتألم من أنها تراني أكاد اجن.
نظرات، نظرات.
يا إلهي! لقد خيل إليّ أن ملك الموت واقف بين عشرين مرآة تحيط بها، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً. وكل نظرة من عينْي زوجتي إليّ كانت منها هي نظرةً، وكانت عندي أنا مرآة الروح للروح.

ولكنها لم تنس قبل ان تموت ان تضع مولودها، وإن هذه الآلام الدموية الذابحة هي الوسيلة لأن تترك لي بقية حياة منها؛ فيا للرحمة والحنان والحب! لقد ابتسمت لي وهي تموت، وهي تلد، وهي تذبح!
ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا إذا كانت حرارة الشمس التي تحي الدنيا خيالاً أيضاً؛ ما أعظم قلب المرأة تحمل في أحشائها الجنين صابرة راضية فرحة بآلامها وتقاسمه حياتها نفسها - هذا القلب يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه.
ابتسمت زوجتي ابتسامة الحب التي غالبت زفراتِ الموت التي تعتلج من تحتها حتى غلبتها، وأعادت الحياة لحظة إلى وجه زوجتي لأراها آخر ما أراها في صورة المُحبة، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودعني وداعاً حزيناً متبسما يتكلم؛ يتكلم بعجزه عن الكلام.
ابتسامة لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها؛ فكأنما التمعت بأشعة من الخلد ترف رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة الموت أن حبه أقوى من الموت.
وجاءت الطفلة الى الدنيا، كانت زوجتي تتمنى أن يكون الجنين بنت، بل كانت مستيقنة أنها تضعها بنت، وصنعت لها ثيابها، ووشتها بزينة الأنوثة، وعرضت أسماءَ البنات فاخترت اسمها أيضاً، وكنت أكره ذلك منها وأريد ولداً لابنتا، فكانت تغايظني بعملها وإصرارها غيظ دعابة لا غيظ جفاء.
ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل، ولا تتكلم إلا عن بنتها، وقد كانت أعجب لذلك، فلما قضى الله فيها قضاءه علمت أن ذلك أمر من أمر الروح، فكان الإلهام فيها أنها على باب قبرها وأنها لن ترى طفلتها ولن تعيش لها، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها، تضم ثيابها إلى صدرها، وتحملها على يدها، وتناغيها وتقبّلها، وتأخذها من الوهم وتردّها اليه. وكذلك نعمت المسكينة بالمسكينة!

ولما قيل: ماتت
- جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل، انه ليس كلام بل بأسلحة تضرب في النفس وفي العقل، وتُثْخنُها جراحا وفتكا.
وجعلني موتها كأني ميت يحمل نفسه، ما حوله إلا المشّيعون، وأحسست كأن قوة أخذت بإحدى رجليّ فوضعتها في الآخرة، وتركت الثانية في الدنيا، ولحقني من الجزع ما الله عالم به، وبكيت أحر البكاء،
بموتها شعرت بها، ولعله من أجله ذلك لا يشعر الإنسان بلذة الحب كاملةً إلا في آلام الحب وحدها، وكانت في حياتها تملأ حياتي سرور وحب، وهذا هو سرّ المرأة المحبوبة، يجد مُحبُّها في كل سرور لمحات روحانية، وكذلك فعلت بعد موتها، فجعلت روحها في أحزاني؛ ولولا أن روحها في أحزاني لقتلتْني المصيبة.
وكنت أدلف وراء النعش وقد صغر في نفسي الشعور بالدنيا، وكان الناس يمشون حولي بما فيهم من الحياة، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان، أما أنا فكنت أمشي بما فيّ من الحب منكسراً منخذلاً، لأني وحدي سائر وراء مالا يلحق.
وكنت وحدي المصاب بينهم.
أنا أمشي لأنتهي إلى آخر مصيبتي، وهم يمشون لينتهوا إلى آخر الطريق؛ وشتان ما انا فيه وشتان ما هم فيه !
ولما رأيت قبرها ابتدرت عيناي تنظران بالدموع لا بالنظر، ورأيت التراب كأنه بألوان السحب السوداء تتهيأ في سمائها تحت الظلام لتخفي كوكباً من الكواكب؛ وظهر لي القبر كأنه فم الأرض يخاطب الإنسان بحزم صارم، يخاطب الفقير والغني، والضعيف والقوي، والملوك والصعاليك: (إن كل قوة تنزع هنا).
وحضرت المأتم وعزّاني الناس فكنت فيهم كالمأسور ، وأرى أنهم يجرعونني الوجود غُصصاً كما تجرعت الفقدَ غصة، إلا أن تفرقوا

مع سواد الليل، فانكفأت إلى الدار فإذا كل شيء تغير قد لمسه الموت لمسة، وإذا الدار نفسها كالعين المجروحة من آثار البكاء، تخبرني بأن مسراتي قد ماتت! ولاح الصبح ليعني الساهرتين، صبحاً فاتراً تبينتُ فيه الخجل كأنه يقول: (لم أطلع لك)، فانسللتُ من البيت، وذهبت أمشي في دنيا هي الكآبة المضيئة، سِخرت الأقدار منها بإظهارها في هذا الضوء مظهر وجه العجوز المتصابية في زينة لا تزيدها إلا قبحاً!

ومضيت على وجهي لا غاية لي، أضرب في كل جهة كأنما أريد أن أهرب من نفسي! وما خطر لي قط أني في يوم جديد، بل كنت عند نفسي لا أزال في أمس، وتغير عندي الزمان والمكان؛ فأحدهما ساعة موت لا تترك ما فيها، والآخر قبر ميتة لا يرد ما فيه.

آه من الوقت الذي ينتهي فيه الموجود ليعذبنا بالتذكر أِنه كان موجوداً!

ثم أعادتني قدماي إلى البيت لأرى طفلتي وما كنت رأيتها ولقد كانت ولادتها أول الحياة لها، وأول الحياة لي أيضاً، إذ لولاها لانتحرت غير شكٍ.

يا ويلتا! لم تلتق عيني بعين الطفلة حتى انفجرت تبكي، أتبكين لي يا ابنتي؟

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة، أم هو صوت قلبك اليتيم؟

أصوتكِ أنتِ، أم هي روح أمكِ تصرخ ترثى لي وتتوجع لفرط ما قاسيت!

يا ابنتي، إنما أنت الحقيقة الصغيرة التي خرجتْ لي من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة - خيالات الأيام السعيدة التي مرّت! يُخلَق المواليد من اللحم والدم، وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خلقتِ من اللحم والدم والدموع!

مسكينة، مسكينة، لو أن نواميس العالم متغيرة لشيء لتغير من أجل بؤسك فردت لك الأم، ولكنها لم تتغير وآلامنا وتعاستنا ستبقى.

وأراكِ يا بنتي كالبيت الذي هُدِم أوَل ما بنى يملؤه ترابه!

لن تتغير النواميس، فلن تجدي عطف الأم، ولكن لن يتغير قلبي أيضاً، فلن تحرمي عطف الأب.

وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة! من أجل ضعفك وانقطاعك سأعاني الصبر لك، وأعاني الصبر لي، وأعاني الصبر من أمك، سأصبر على الصبر نفسه!

يا ابنتي، يا ابنتي، لماذا وضعتك الأقدار في هذه الحياة، في الناحية التي ليس فيها إلا قبر مظلم مقفل على أمكِ، وأب مسكين مقفل على آلامه؟!

وهكذا كتبتُ من أهل البؤس والهم، فلم أتزوج إلا لتصنع لي حبيبتي دموعي، ثم لم تمت إلا بعد ان تركت لي حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلا تصنع لي دموعي.